

الخاتمة

بعد ظهور الفن الروائي في الأدب العربي تحولاً أدبياً استدعته مجموعة من التحولات الأيديولوجية، بل يمكن أن نشير إلى أن ظهور الرواية في الأدب العربي ذاته تحول أيديولوجي في التوجه الأدبي والثقافي، وذلك اعتماداً على العلاقة التكوينية بين الرواية (فناً أدبياً وظيفياً) والأيديولوجيا (محمواً خطابياً موجهاً وموجهاً) وإذا كانت الرواية في الغرب قد رافقت ظهو الأيديولوجيا الجديدة (البورجوازية) أو كانت إنتاجاً طبيعياً وتعبيرياً عن هذه الأيديولوجيا؛ فقد جاءت في الأدب العربي (إشكالية) متعددة الجوانب؛ أولاً من حيث علاقتها بالجنس الأدبي العربي السائد وذلك في جميع مستوياته اللغوية والفنية ، وثانياً من حيث الموقف الأيديولوجي من هذا الأفق الجديد الذي لم ينتم بسهولة إلى الحقول الأدبية، إذا مازالت هناك تساؤلات كثيرة حول مشروعية انتمائه الأدبي ، والبحث في العناصر التي تمنحه أدبيته. وتوصلنا إلى تحديد الجنس الأدبي للرواية "الخبز الحافي" بأَنَّها سيرة ذاتية مكتوبة بتاريخ مسلسل، فهي سيرة ذاتية مُروّاة، أو سيرة ذاتية بشكل روائي معتمدين على التعريف العام للسيرة الذاتية في الأدب العربي ، وهو تعريف لوجون : السيرة الذاتية هي حكي استعادي نثري بأشكال سردية متعددة يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاصّ والعامّ وذلك عندما يرتكز على حياته الفردية والجماعية وعلى تاريخ شخصيته الجزئي أو الكلّي. جاءت "الخبز الحافي" لتتبّنى مفهوم الفضاء الروائي مفهوماً للفضاء السيرذاتي أيضاً الذي هو الحيز الزمكاني الذي تتمظهر فيه الشخصيات . ينطلق من اشتغال لفظة الفضاء على المكان والزمان ، أي المكان بترابطه مع الزمان، وما يتمحض عن هذه العلاقة التي تقوم عليها العملية السردية حديثاً، وشخصية، فهو الشاشة العاكسة والمجسدة لحركته وفاعليته.

كما توصلنا إلى أنّ شكري شحيح جداً في إعطائنا معلومات وفيرة عن المكان، فهو يتوقف في وصفه عند حدود الرؤية الشمولية التي هي المنظر العام . أمّا الزمن فيتخذ لديه أشكالاً متعددة فقد يكون مكوناً من لحظات متتابعة أو متاثرة وأحياناً متتافرة . فهو

يقوم على الانتقائية، ولكن هذه الانتقائية ليست عشوائية وإنما هناك نوع من الترابط من خلال إيجاد شبكة من العلاقات تربط الأحداث بعضها بالبعض الآخر.

كما تظهر رواية الخبز الحافي رواية الشخصية الرئيسة التي هي المسيطر المطلق على مصائر الشخصيات الأخرى والتي لا يقدم لنا شكري وصفا كاملا لها ، الأطفال والنساء والرجال الذين يعج بهم عالمه السري، ولا يقول لنا شيئا عن تاريخهم، يظهرون (أشباح ترقص على الصفحات) ويختفون بسرعة مثلا خرجن فجأة من العدم. كما جاءت لغة الرواية كما أرادها شكري فاضحة وجارحة ، وشلّها باللغة الشعبية واللهجة العامية المغربية، ويكسر سياق الفصحى بعبارات ريفية مغربية. وبعد استقراء الجانب الدلالي الذي تتوفر عليه السيرة في متنها وخطابها توصلنا إلى استخلاص ثلاث مستويات دلالية تقوم بينها صلات تفاعل وتكامل ويترافق فيه الجمالي والفكري والذاتي والموضوعي والواقعي والمتخيل.

— تتصدر الدلالة الذاتية سائر الدلالات التي تتضمنها السيرة وتحيل عليها تصريحا وتلميحا، لأن النص سير ذاتي قبل أن يكون روائيا وذلك لثراء مرجعياته الواقعية وتنوعها أحداثا وشخوصا، أزمنة وفضاءات والتي تبقى ذات شكري مدارها الذي دور فيه وفاكها الذي تسحب فيه، في مرحلة طفولته البائسة تجربة والشقية وعيا. ومما لا شك فيه أن شكري قد رام من كتابة سيرته إبراز ما لحقه من تشوه نفسي وسلوكي ناجم من جهة عن واقع أسري واجتماعي متآزم ، يسمى الفقر والعطالة والتشرد ومترب من جهة ثانية عن ظرف تاريخي دقيق لا يخلو هو الآخر من تآزم ومظاهر اختلال طرفة الحرب العالمية الثانية ، والاستعمار، وهو ظرف كانت له انعكاساته السلبية على واقع المغرب وأثاره السيئة النفسية منها والسلوكية والمادية على فئات المجتمع المقهورة ، وهو ما تجسد سيرة شكري وأسرته.

— الدلالة الاجتماعية: والتي لا تتفصل في الواقع عن نظيرتها الذاتية فالسيرة وهي تجسد معاناة ذات فردية إنما تجسد في الحقيقة معاناة ذات جماعية تمثلها الفئات المقهورة والمعذبة في المجتمع المغربي زمن الحرب العالمية الثانية والاستعمار ، فتكون سيرة شكري في حقيقتها صورة عن سيرة المجتمع في فتراته التاريخية من جانب

وسيرة تعنى ضمنيا بشرح الأوضاع الطبقية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لقطاعات عريضة من جماهير الشعب المغربي من جانب آخر. مما دفع بالعديد من الفئات البائسة إلى النزوح نحو الداخل ونحو الخارج، وتكون السيرة على هذا الأساس وثيقة اجتماعية على تعبير شكري.

— الدلالة التاريخية: تتجسد في إحالة السيرة على المرحلة الاستعمارية التي كان يمر بها المغرب وتدل عليها أكثر من علامة نصية ، لعل أبرزها الأحداث الدامية التي شهدتها مدينة طنجة في 12 مارس 1952. وما خلفه تلك الأحداث من دمار وخراب ، إلا أنه يمكن الوقوف على بعض الآثار السلبية الأخرى خاصة الواقع الاجتماعي والاقتصادي المخزي الذي حل بالمغاربة . وكل ذلك يكسب السيرة بعدها التاريخي من خلال توثيقها لحقبة كاملة من تاريخ المغرب الحديث والمعاصر .

ولعل النتيجة الأبرز التي انتهت إليها، واقتنت بها، هي القدرة الفنية للروائي محمد شكري التي تجلّت في عنايته ببناء كل عنصر من عناصر الرواية، وحرصه على شبكة العلاقات بين العناصر كلّها، وسعيه إلى التعبير عن رؤيا روائية متماسكة مقنعة ذات خلفية ثقافية متنوعة.